
ريثونيا

-٤٩-

وذهبت إلى ريفونيا الضيعة التي كنت قد أقمت بها سابقا وعقدنا اجتماعا سريا في الليلة التالية أخبرت فيها لجنة العمل بما تم في رحلتى ولخصت ما دار أثناءها وأعطيتهم بيانا بالأموال التي تلقيتها وعروض التدريب العسكري وأخبرتهم بالتفصيل عن التحفظات التي واجهتها من القادة الأفارقة حول تعاون المؤتمر مع البيض والهنود والشيوخيين. وكانت مازالت ترن في أذني كلمات قادة زامبيا عن أنه رغم علمه أن المؤتمر أقوى وأكثر شعبية من ال PAC ولكنهم يتفهمون نقاء القومية الإفريقية لـ PAC وإن اختلاط الأعراق في المؤتمر يذهلهم وكذلك صلته بالشيوخيين. وأخبرتهم أنني وأوليفر متفقان على أن المؤتمر لابد وأن يبدو أكثر استقلالية ليطمئن حلفاؤنا الجدد في القارة حيث إنهم سيقومون بتمويل وتدريب MK واقترحت إعادة تشكيل مجلس التحالف بحيث تبدو قيادة المؤتمر واضحة خاصة في الشؤون التي تتعلق بالأفارقة.

وكان ذلك اقتراحا خطيرا يجب بشأنه استشارة جميع القيادات وطلبوا منى الذهاب إلى دربان لمقابلة الرئيس. وذهبت الليلة التالية

برفقة سيسيل متخفيا كسائقه والتقيت بمونتى نيكر وإسماعيل مير ولخصت لهما ما دار فى رحلتى وقدمت عرضى الجديد. وكان الاثنان شديدى القرب من الرئيس ولكنهما أظهرتا قلقا شديدا حينما أخبرتهم أن المؤتمر يجب أن يقود التحالف وأن يصدر بيانات مستقلة فيما يتعلق بشئون الأفارقة. وكان رد لوثولى بعد ذلك أنه لا يجوز أن يملى السياسيون الأجانب سياسة المؤتمر وأنه لابد من استمرار السياسية اللاعرقية. فقلت له إن أولئك الساسة لا يملون لكنهم فقط لا يمكنهم فهم سياستنا مضيئا أن التغيير سيكون ظاهريا من أجل إرضاء حلفائنا وإلا فسيقوى دعمهم لـ PAC وستتحول من منظمة ضعيفة إلى منظمة شديدة القوة. ولم يتخذ الرئيس قراره فورا. وعقدت اجتماعات أخرى فى دربان كان آخرها مع القائد المحلى لـ MK وكان خبيرا فى عمليات التخريب وشرحت للقيادة هناك تفاصيل رحلتى ثم أخبرتهم أنه فى الوقت الحاضر سيقتمر نشاط MK على عمليات التخريب وإذا لم تُجد فستتحول إلى حرب عصابات.

ومرة أخرى تخفيت فى زى سائق سيسيل وقفلنا راجعين وكنا نتبادل القيادة وبينما كنا مستغرقين فى المناقشة رأينا سيارة فورد مليئة

بأشخاص بيض تسبقنا من الناحية اليمنى والتفت خلفي ورأيت سيارتين أخريين مليونتين بالرجال البيض وأشارت لنا السيارة التي في الأمام أن نقف وعرفت أن الشهور السبعة عشر من الحرية كانت في سبيلها إلى الانتهاء.

وأتى شخص نحيف طويل ذو تعبيرات قاسية إلى النافذة. وقدم نفسه على أنه الجاويش فورستر من قوة الشرطة وأبرز أمرا بالقبض على وطلب مني أن أعرف هويتي فأخبرته أن اسمي هو دافيد موتسمابي ووجه إلى عدة أسئلة حاولت تقادى الإجابة عنها فبدأ ضيقه وقال «إنك نيلسون مانديلا وهذا سيسيل ووليامز وكلاكما مقبوض عليه».

وفي مكتب فورستر في مقر الشرطة كان هناك عدة ضباط من بينهم ضابط كان قد أدى شهادة غير متحيزة في قضية الخيانة وحيا كلانا الآخر.

وتمسكت هناك بما قلته إن اسمي دافيد وطلبت محامى ولكن طلبى رفض فامتنعت عن الإدلاء بأقوالى.

واحتجزت أنا وسيسيل كل منا في زنزانة. وكانت السلطات قد اعتقدت منذ أسابيع سابقة لعودتى بأننى موجود بالبلاد. ففي شهر يونيو تصدرت الصحف العناوين عن عودة اليمبرنيل الأسود. وربما كان ذلك تمويهاً.

وكانت السلطات قد أخذت في مضايقة وبنى ظنا منها أنها تعلم بمكان تواجدى وتتبعوها وفتشوا المنزل فى عدة مناسبات. وربما أيضا كانوا

قد عرفوا أنني لابد وأن أזור الرئيس بمجرد عودتي. لكنني لم أستبعد الوشاية فقد كان المخبرون قد اخترقوا صفوف الحركة هذا بالإضافة إلى أننا لم نكن جميعا حريصين بالدرجة الواجبة.

وفى الساعة الثامنة والنصف صباحا أحالنى القاضى المحلى رسميا إلى جوهانسبرج. وفى الطريق استمعت إلى نبأ القبض على من المذيع وعند وصولى إلى جوهانسبرج أودعت سجن مارشال فى زنزانة منفردة. وبينما كنت أخطط لاستراتيجية اليوم التالى سمعت سعالا وتعرفت على صاحبه فقد كان وولتر وكان فى زنزانة قريبة قناديت عليه ورد النداء وأخذنا نضحك تحت تأثير مزيج من الدهشة والفرح والإحباط وقد علمت أنه قد تم القبض على وولتر بعد القبض على بقليل.

وفى اليوم التالى استُدعيت أمام القاضى لإعادة حبسى رسميا. وكان هارولد وولب وجوسلوثو قد حضرا إلى المحكمة بعد سماع نبأ القبض على وهناك تعرفت على القاضى وعدد من المحامين وحيونى كزميل. وأثناء الإجراءات بدوا جميعا خجلين محرجين. وعند ذلك تحققت أن سبب عدم ارتياح هؤلاء الرجال ليس فقط كونى زميلا لهم ولكن أيضا لكونى رجلا عاديا يعاقب على معتقداته.. وهنا تحققت أيضا من إمكانات نورى أثناء المحاكمة. فقد كنت رمزا للعدالة فى محكمة للمستبد وكنت أمثل العدالة والحرية والديمقراطية فى مجتمع أخل بتلك الفضائل وعرفت أنه بإمكانى مواصلة المعركة وأنا داخل قلعة العدو.

وأعلنت أنني سأمثل نفسي وأن جو سولفو سيكون مستشاري القانوني وهكذا يمكن استخدام محاكمتي كوسيلة لعرض مقاومة المؤتمر لسياسية التمييز العنصري وبذلك أضع الدولة في موضع المتهم. وعلى ذلك لم أجب عن أية أسئلة في ذلك اليوم إلا فيما يختص باسمي واسم مستشاري واستمعت إلى الاتهامات وهي تحريض العمال على الإضراب ومغادرة البلاد بدون مستندات رسمية وكانت العقوبة على ذلك تبلغ السجن لعشر سنوات. وشعرت بالارتياح لأن ذلك يعني أن الدولة لم تكن تملك الدليل على صلتى بـMK وإلا كانت التهمة هي الخيانة العظمى.

- ٥ -

ونقلت إلى قلعة جوهانسبرج. وفي الطريق كان هناك مئات من الناس يهتفون ويصيحون ويغنون. وكانت أخبار القبض على محاكمتي قد احتلت العناوين الرئيسية بالصحف.

كان المشرف على القلعة أفريكانيا يعتبر ليبراليا بمقاييس زملائه وقال إنه سيضعني في مستشفى السجن لكونه أفضل مكان بالقلعة وهناك سيكون لي مقعد ومنضدة لكي أتمكن من تجهيز قضيتي. غير أن السبب الحقيقي هو أن المستشفى كان أكثر الأماكن تحصينا في القلعة فقد كان محاطا بأسوار حصينة وحراس مسلحين لأن الصحافة كانت قد تثبتت بأن المنظمة ستحاول إنقاذي.

وكانت الصحافة قد بدأت تنشر أنباء عن قيام أشخاص من داخل

المنظمة بالإبلاغ عنى وحددت البيض والهنود من أعضاء الحزب الشيوعي. ولكننى كنت أعلم وزملائى أن الحكومة تريد تفريق صفوفنا وقد استتكرت وبنى تلك الشائعات فى اجتماع عام. كذلك انتشرت شائعات عن مسئولية وكالة المخابرات الأمريكية ولكن لم تثبت صحة تلك الشائعات رغم علمى بمسئولية الوكالة عن نشاطات حقيرة ومساندتها للإمبريالية.

ثم تم نقلى لبريتوريا حيث لم تكن هناك فرصة لاستقبال زائرين على عكس الحال فى القلعة.

وكان يُسمح لى بتلقى الزيارات مرتين فى الأسبوع وكانت وبنى تأتى بانتظام ومعها الأكلات الشهية والملابس النظيفة رغم بعد المسافة ومشقة حضورها فى منتصف النهار ومنتصف الأسبوع تاركة طفلتين صغيرتين بالمنزل. وكان عدد كبير من الأفراد يأتون لزيارتى ومعهم الطعام الذى كنت أقتسمه مع السجناء الآخرين. وعن طريق قنوات الاتصال الداخلى علمت بوجود وولتر فى بريتوريا وقد تمكنا من الاتصال رغم فصلنا. وكان وولتر قد تقدم بطلب للإفراج عنه بكفالة ووافقته رغم موقف المؤتمر من الكفالة إذ كان البعض يرى أنها يمكن أن تؤدى إلى تصويرنا على أننا جبناء نتقبل محظورات النظام القانونى العنصرى. ولكننى كنت أرى أن لكل قضية ظروفها الخاصة فقد كان وولتر قد أصبح السكرتير العام للمؤتمر وكان وجوده فى الخارج حيويًا للمنظمة. أما أنا فقد كنت أعمل فى الخفاء وكنت قد أصبحت رمزًا عامًا للثورة والنضال فى حين كان عمل وولتر يتم وراء

الكواليس. وبعد ذلك بقليل نقلت إلى المستشفى مرة أخرى وكان أول شيء فعلته هو إرسال خطاب للسلطات أعلمهم بعزمي على مواصلة دراسة القانون للتخصص وطالبا السماح لي بشراء كتاب قانون الضرر الذي كان ضمن المقرر.

إن الهرب من السجن يحقق هدفا مزدوجا فهو أولا تحرير للمعتقل المناضل كما أنه يعطى دفعة نفسية هائلة لحركة النضال ويوجه لطمة دعائية للعدو. وقد كنت قمت برسم خريطة تفصيلية للسجن وتم تهريبها مع التأكيد على إعدام الورقة فيما بعد وكانت هناك خطة لتهريبى من تدبير المؤتمر وأوصلها إلى جوسلوڤو وأعطيت جو مذكرة شرحت فيها أرائى عن الخطة وهى أن الـ MK غير مستعدة الآن للقيام بتلك العملية وأن من الأفضل تأجيل المغامرة إلى أن يصدر الحكم على وتتراخى الإجراءات. وقد وافق جو والآخرين على عدم محاولة الهرب فى ذلك الحين. وكنت قد أضفت فى النهاية أنه يجب إعدام الورقة بمجرد قراعتها ولكنهم قرروا أن تبقى المذكرة كوثيقة تاريخية مما أدى إلى نتيجة سيئة فيما بعد.

-٥١-

وحدد يوم ١٥ أكتوبر لجلسة الاستماع الأولى. وأنشأت المنظمة لجنة سميتها لجنة إطلاق سراح مانديلا وبدأت حملة نشطة تحت شعار «أطلقوا سراح مانديلا» وبدأ الشعار يظهر مكتوبا على جوانب المباني وردت الحكومة بأن منعت الاجتماعات الخاصة باعتقالى لكن الحركة

تجاهلت القرار.

وكإعداد للجلسة نُظمت اللجنة مظاهرة جماهيرية عند المحكمة وكانت الخطة أن يصطف الناس على جانبي الطريق الذي ستمر به عربة الشرطة وعرفت من التقارير الصحفية أن التوقعات أكدت أن أعداداً ضخمة ستشارك في المظاهرة ولكن يوم السبت السابق للمحاكمة تم نقلى إلى بريتوريا حيث تقرر إجراء المحاكمة هناك ولم تعلن السلطات عن ذلك. وكان رد فعل الحركة سريعاً فقد ازدحمت قاعة المحاكمة في بريتوريا بالمؤيدين. وصدر قرار بحظر جو سلوٴو واستبدال ببوب هويل الذى قدم لى المساعدة القديرية.

ودخلت القاعة وأنا أرتدى الزى التقليدى للإكسهوسا وتعالت الصيحات والتهافتات التى اشتدت بسبب وقع الزى حيث كان كثير من الحاضرين أصدقاء وأقارب وكان بعضهم قد حضر من ترانسكى. كذلك ارتدت وبنى زى نساء الإكسهوسا التقليدى وكنت ارتديت ذلك الزى لتأكيد أهمية رمزى كأفريقي أسود يدخل محكمة الرجل الأبيض. فقد كنت أحمل على ظهري تاريخ وحضارة شعبي وإرثه. وكنت أعلم أن السلطات ستشعر بالتهديد من ارتدائى ذلك الزى الوطنى كما يستشعر البيض الخطر من الحضارة الإفريقية الحقبة. ونودى على القضية فطلبت التأجيل أسبوعين نظراً لنقلى إلى بريتوريا نون أن نتاح لى الفرصة لإحضار محام. ووفق على التأجيل أسبوعاً. وعندما عدت إلى السجن حاول مديره أن يصادر ردائى فهددته بالالتجاء إلى المحكمة العليا حيث إنه ليس لديه السلطة القانونية ليفعل ذلك. فلم

يكرر الطلب، فقط مُنعت من ارتدائه وأنا فى الطريق إلى المحكمة واقتصر استعمال إياه على داخل المحكمة فقط.

وحيث أعيد نظر القضية طلبت السماح لى بالدفاع عن نفسى فقد كنت أريد أن أوضح لهيئة الحكمة نيتى فى وضع الدولة موضع الاتهام.

واستعان المدعى بأكثر من مائة شاهد وقدم معظمهم براهين فنية تثبت صحة التهمتين وهما تحريضى للعمال أثناء إضراب المنازل وأننى غادرت البلاد. ولم أحاول مجادلة أى من التهمتين فقد كنت مذنباً من وجهة النظر الفنية. واستدعت المحكمة السكرتير الخاص لرئيس الوزراء ليشهد بشأن واقعة الخطاب الذى أرسلته أطلب فيه رئيس الوزراء بعقد مؤتمر لوضع دستور غير عنصري وإلا قمنا بالإضراب. وسألت الشاهد عما إذا كان رئيس الوزراء قد رد على الخطاب فأجاب بالنفى وكنت قد بدأت بقراءة نص الخطاب. وبعد أن سألته إن كان يوافق على أن الخطاب يثير قضايا تهم الأغلبية وأجاب بالنفى سألته إن كان يوافق على أن قضايا حقوق الإنسان والحريات المدنية حيوية للشعب الإفريقى فرد بالإيجاب وسألته إن كان الخطاب يذكر تلك القضايا فوافق. ثم سألته عما إذا كان يعلم أن الأفارقة لا يتمتعون بتلك الحقوق فأجاب أنهم لا يتمتعون ببعضها ففصلت له تلك الحقوق فأجاب أن الأفارقة لا يتمتعون بها فسألته إن كان يوافق على أنه فى أى بلد متحضر فى العالم يعتبر عدم رد رئيس الوزراء على أمور بمثل تلك الأهمية تصرفاً مخزياً فقال إنه لا يوافق وأجاب أن رئيس الوزراء لم يتجاهل الخطاب وأضاف أنه قام بالرد. ولم أتمكن من انتزاع

الموافقة منه.

وكنت حينما سألتنى المحكمة عن عدد الشهود الذين سأستدعيهم أجبته بأننى سأستدعى عددا أكبر من الشهود الذين استدعتهم الدولة. ولكن حينما انتهت الدولة من عرض القضية وانتظرت أن أبدأ دفاعى نهضت وأبلغت المحكمة أننى لن أستدعى شهودا على الإطلاق. وحينما سألنى القاضى إن كان لدى أى شىء أضيفه قلت له إننى أقرر أننى لم ارتكب جريمة وأنه ليس لدى ما أضيفه.

وأجلت المحكمة الجلسة إلى اليوم التالى لأعد خطابى الذى أطلب فيه تخفيف الحكم.

وفى اليوم التالى وقبل انعقاد الجلسة كنت أجلس مع بوب هيلل نناقش القضية ونمتدح القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع بعض العقوبات على جنوب إفريقيا حينما دخل علينا المدعى فى القضية السيد بوش وطلب من بوب مغادرة الغرفة ثم أخبرنى أنه لم يكن يريد أن يأتى إلى المحكمة لأنه لأول مرة فى تاريخه الوظيفى يشعر باحتقار ما يفعله وأنه يشعر بالمعاناة أن يطلب من المحكمة أن تحكم على بالسجن ثم صافحنى وأعرب عن أمله فى أن يتحول كل شىء لصالحى.

وكانت السلطات متأهبة إذ إن الزحام كان أشد منه فى اليوم الأول وكانت وبنى حاضرة بزيتها الوطنى وكذلك كان جمع من أقاربه وكان مئات المتظاهرين يقفون قريبا من المحكمة وكان عدد رجال الشرطة

بماتل عدد الحضور.

وعندما دخلت القاعة رفعت يدي هاتفا وردد الحاضرون الهمتاف. ثم تكلمت لمدة ساعة وكان خطابي نصا سياسيا أكثر منه طلبا لتخفيف الحكم.

وفى خطابي ذكرت للمحكمة ما كانت عليه الأمور قبل قدوم الرجل الأبيض وكيف كنا نعيش فى سلام وديمقراطية وأنه لم تكن هناك ملكية خاصة ولا طبقات ولا استغلال للإنسان بل كان الجميع طلقاء متساوين وكان هذا أساس الحكم الذى وجد تعبيرا فى دستور الحكم القبلى ومجلس القبيلة. وأضفت أن ذلك التاريخ هو الذى يلهمنى وزملائى فى كفاحنا السياسى.

ثم أخبرت المحكمة عن سبب التحاقى بالمؤتمر الذى توافق سياسته الديمقراطية اللاعنصرية معتقداتى. وذكرت أننى وبينما كنت أعمل كمحام كنت دائما أجبر على الاختيار بين إطاعة القانون وبين ضميرى وذكرت أن مثل هذا الصراع ليس مقصورا على هذا البلد ففى بريطانيا مثلا واجه أحد أعظم فلاسفة العصر وأحد نبلاء بريطانيا وهو برتراند راسل الصراع نفسه حُكم عليه بالسجن لاتباع ضميره وتحدى القانون لاعتراضه على سياسة التسليح النووى.

ثم استعرضت تفصيليا المرات التى حاولت السلطات فيها استخدام القانون لشل عملى وحياتى ونشاطى السياسى وقلت إن القانون جعل منى مجرما ليس بسبب ما فعلت لكن بسبب ما أمتهه والفكر الذى

أعتقده وذكرت أن حياتى فى الخفاء كانت أصعب من حياتى المحتملة فى السجن وأن تحدينا كان بسبب أعمال ومواقف الحكومة وأن آخرين قبلى قد دفعوا ثمن معتقداتهم وآخرين أكثر سيدفعونه بعدى. ثم اختتمت قائلاً إن الشئ الوحيد الذى هو أقوى من كراهيتى للظروف البشعة التى سأخضع لها فى المعتقل هو كراهيتى للظروف البشعة التى يخضع لها مواطنى خارج السجن فى عموم البلاد وأنه بعد انتهاء مدة الحكم على فسأواصل المعركة لإنهاء تلك المظالم حتى تختفى إلى الأبد.

وكان الحكم هو ثلاث سنوات لتحريض الناس على الإضراب وستان لمغادرة البلاد دون جواز سفر وبدأ الحضور فى العويل ولكنى اتجهت إليهم رافعا قبضتى وهتفت لإفريقيا وبدأ الناس فى الغناء والرقص وأطلقت النساء الزغاريد وأنا أقاد إلى المعتقل.

-٥٢-

إن المعتقل لا يأخذ من الإنسان فقط حريته ولكنه أيضا يحاول أن يحرمه من هويته فإن الجميع يرتدون نفس الملابس ويتكلمون نفس الطعام ويتبعون نفس برنامج الحياة اليومى وإن الدولة السلطوية فقط هى التى لا تسمح باستقلال الإنسان وتفرد.

وفى سجن بريتوريا المحلى أمرت بخلع ملابسى وصرف لى زى المساجين الأفارقة وهو عبارة عن بنطلون وقميص كاكى وجورب وصندل وكان يصرف البنطلون القصير للمساجين الأفارقة فقط لأن

الرجال الأفارقة كانوا فى نظر السلطات «صبية» ثم أحضروا إلى طعاما من ثريد الذرة البارد فرفضت الأكل والسروال القصير وهنا قال لى مأمور السجن إنه سيعطينى طعاما أفضل وسروالا طويلا إذا وافقت على الحبس الانفرادى. ووافقت.

وقضيت الأيام التالية فى عزلة تامة ولم يكن هناك ما أقرؤه أو أكتب به. وبعد بضعة أسابيع تغلبت على كبرياتى وأخبرت المأمور أنى على استعداد لاستبدال السروال الطويل بصحبة الآخرين. وبعد اعتراضات متكررة وافق المأمور على أن ألق بالسجناء السياسيين الآخرين وكان بينهم سوبوكوى قائد ال PAC وكنت أتوق للحديث معه عسى أن تصل إلى ما يوحد بين آرائنا فى السجن.

ووجدت خلفا لسوبوكوى آخرين من المنظمات الأخرى ورحب الجميع بى بحرارة وطلب منى روبرت أن أعطيه تقريرا عن رحلتى فى إفريقيا وكنت صريحا عن صورة PAC والمؤتمر فى إفريقيا وأضفت أننا لا بد وأن نناقش مختلف القضايا ولكن بعد ذلك عملت سلطات السجن على فصلنا وعدم لقائنا. ولم يكن هناك سوى فرص قليلة لحديثنا وكنت أحترم سوبوكوى وأقدر آراءه. لكننا أيضا اختلفنا بشأن ظروف السجن إذ كان هو يعتقد أن مقاومة الظروف السيئة تعد اعترافا منا بحق الدولة فى سجننا.

ولحق بنا وولتر لمدة أسبوعين، فقد كان يحاكم فى جوهانسبرج بتهمة التحريض على الإضراب وحكم عليه بالسجن لمدة سنة واحدة. وكان قد

استأنف الحكم فشجعتته على طلب الكفالة وفعل ذلك ثم صدرت إليه التعليمات من المنظمة بالاختفاء والعمل القيادي السرى وقد فعل ذلك بجدارة.

-٥٣-

وفى أكتوبر ١٩٦٢ وأثناء محاكمتى عقد المؤتمر اجتماعه السنوى الأول منذ عام ١٩٥٩ ولأن المنظمة كانت غير قانونية فقد عقد الاجتماع فى لوباتشى على حدود بنشوالاند وكان الاجتماع علامة معيزة لأنه أعلن صلة المؤتمر بـ MK وأشار إليها على أنها الجناح العسكرى للمعركة وكان ذلك قد تم للقضاء على أعمال إرهاب غير مسنولة تقوم بها منظمة موكو التى لها روابط ضعيفة مع PAC وكانت تستهدف المتعاونين من الأفارقة والبيض.

وكانت أعمال الإرهاب ضد سلطات البانتو قد تزايدت؛ وذلك لأن الحكومة كانت قد قننت النظام وكان الناس قد ساهموا فى تقنيه بالتصويت عليه ولو بالمعارضة وكان فورستر وقتها وزيرا للعدل وكان يؤمن بأن القبضة الحديدية هى الرد الوحيد على أعمال العصيان.

وفى مايو ١٩٦٣ طبقت الحكومة تشريعا كان الهدف منه كسر ظهر MK حسب تعبير فورستر وعرف القانون باسم قانون الحجز لمدة ٩٠ يوما الذى كان يعطى أى شرطى الحق فى احتجاز أى شخص دون أمر بالقبض عليه على أساس الشك فى ارتكابه جريمة سياسية. وكان بالإمكان مد أمد الأيام التسعين إلى مالا نهاية وقد حول القانون

البلاد إلى دولة بوليسية وأصبحت الشرطة أكثر شراسة وكان المساجين يضربون ويعذبون بالصدمات الكهربائية والخنق ولم يعارض القانون في البرلمان سوى هيلين سوزمان من الحزب التقدمي.

وتزايدت العقوبات لعضوية المنظمات غير القانونية وكانت العقوبة على ما يسمى مساعدة أهداف الشيوعية تتراوح بين الخمس سنوات والإعدام وكان ذلك القانون قد طبق في حالة سوبوكوي الذي كانت مدة عقوبته قد انتهت ولكن الحكومة جددت سجنه بدون تهمة جديدة وأرسلته إلى جزيرة روبن كما طبق قانون تحديد الإقامة بالنازل وقوانين أخرى عنيفة وفق مشيئتها. كما صدر قانون بعدم نشر أو ترديد أية مقولة لشخص محظور. وفي عام ١٩٦٢ أوقفت صحيفة العهد الجديد وأصبح امتلاك أي إصدارات غير قانونية يعاقب عليه بالسجن.

-٥٤-

وفي ليلة قرب نهاية مايو أخبرت أنا والسجناء السياسيون الآخرون أنه سيتم نقلنا إلى جزيرة روبن. ونقلنا إلى كيب تاون وكنا أربعة موثقين معا ونقلنا في حافلة شرطة مغلقة ليس بها نواقد وبها دلو. واستمرت الرحلة طوال الليل ومعظم النهار. ولم يكن من السهل لأربعة أشخاص موثقين معا أن يستعملوا دلوًا في عربة تتحرك.

وكان رصيف الميناء في الكيب يعج بأفراد الشرطة المسلحين ونقلنا إلى معدية خشبية وحيث وقفنا كانت هناك فتحة صغيرة بالسقف يروق

الحراس للتبول منها على رعو سنا. ووصلنا إلى الجزيرة قبل الغروب، وكنت قد سمعت عن تلك الجزيرة وأنا طفل وكانت الجزيرة معروفة بين الإكسهوسا لأن أحد قادتهم كان قد نفى إليها عام ١٨١٩ لقيادته معركة ضد الإنجليز. وحاول الهرب بقارب ولكنه غرق قبل أن يصل إلى الشاطئ ولم يُعرف عن أحد أنه نجح في الهرب منها سوى شخص كان قد نفاه هناك جان فان رايبك عام ١٦٥٨.

وكانت الجزيرة قد تحولت إلى مستعمرة لمرض البرص ومعدل للمجانين وقاعدة بحرية ثم أصبحت مؤخرا سجنا مرة أخرى.

واستقبلنا مجموعة من السجناء البيض الأفظاظ وهم يصيحون «هذه هي الجزيرة وهنا ستموتون» وكان أمامنا مجمع تحيطه مراكز حراسة واصطف الحراس المسلحون على طول الممر المؤدى للمجمع. وصاح سجان طويل نوجه أحمر قائلا «إنى هنا رئيسكم» وكان أحد الأخوين كلينهانسن المشهورين بوحشيتهم فى معاملة السجناء وبينما كنا نسير تجاه السجن أخذ الحراس يصيحون «اثنين اثنين» ثم طلبوا منا أن نجرى وهنا قلت لزميلى إن علينا أن نعطي مثلا لأننا إذا خضعنا الآن فسنظل تحت رحمتهم وأخذنا نسير ببطء. كنا فى المقدمة وهددنا كلينهانسن لكننا ثابتنا فى السير بخطوات وثيدة. ولما وصلنا إلى الزنانات أخذنا إلى غرفة مستطيلة تغطى أرضيتها المياه وأمرنا أن نخلع ملابسنا وكنا كلما خلعنا قطعة التقطها الحراس وفحصوها ثم أغرقوها فى الماء ثم بعد ذلك أمرنا بارتداء الملابس المشبعة بالمياه.

ثم أخذنا إلى زنزانتنا وكانت أفضل زنزانة رأيتها فقد كانت التوافذ كبيرة وكانت بإمكاننا رؤية السجناء والنزلاء وهم يسيرون. وكانت الزنزانات متسعة ولها مراحيضها وحماماتها. ولكن أمرنا ألا نحادث أحدا من التوافذ.

بعد ذلك علمنا أنه يوجد بالجزيرة أكثر من ألف مسجون من الأفارقة وكانوا كلهم قد وصلوا حديثا وكنت أعلم أنه لا بد أن يكون بينهم بعض السجناء السياسيين وحاولت الاتصال بهم ولكننا كنا معزولين تماما. ولما طلبنا أن نخرج للعمل كبقية السجناء نُفِذ طلبنا لكننا كنا نخرج منفردين وكان يشرف علينا أحد الأخوين كينهانسن. وأوكل إلينا ردم بعض الأنابيب التي كان قد تم تركيبها حديثا وكنا نعمل بجد طوال اليوم.

وكان مراقبنا هو الأخ الأكبر ولا بد أن أخاه قد حذره وطلب منه أن يضبط نفسه لأنه لم يحدث وأن لسننا. وحدث ذات يوم بينما كنا عائدين من العمل في رفقة الأخ الأصغر أن توقف ليتحدث إلى أخيه واستدرت لأنظر إلى بعض المساجين الآخرين الذين كنت أعرف شخصياتهم وهنا أمرني بوقاحة ألا أفعل ذلك وشعرت أن كبريائي قد جرح في حضور المساجين الآخرين ورفضت أمره فتقدم وهو ينوي مهاجمتي ولكن حينما اقترب مني جرى إليه أخوه هامسا في أنفه وسحبه بعيدا.

وحينما بدأت أعمل في السجن شعرت بحياة المساجين في الجزيرة.

وقامت السلطات بنقل بعض المساجين التابعين لـ PAC إلى زنزانة مقابلة وكنا نستطيع فى الليل التحدث معهم واكتشفت أن بينهم ابن أخ لى لم أكن قد رأيته منذ أن كان رضيعا. وذات ليلة سألنى، فيما تجمع الآخرون حوله، عن التنظيم الذى أنتمى إليه. وحينما قلت إنه المؤتمر، تغيرت تعبيرات أوجههم واختفوا من وراء النافذة. ثم عاود ابن أخى وسألنى ما إن كنت قد أنتميت أبدا إلى PAC وحينما أجبت بالنفى قال إنه قد فهم أننى التحقت بـ PAC أثناء رحلتى فى إفريقيا فأجبت بالنفى واستاء الجميع أوقفوا التحدث معنا.

وذات ليلة حضر إلينا أحد الضباط وأمرنا أن نجمع أغراضنا. ورحل الثلاثة الآخرين واستبقيت أنا. وفى الصباح الباكر نُقلت إلى بريتوريا وكانت الحجة التى أذاعتها مصلحة السجون أن النقل قد تم لحمايتى من تهديدات أعضاء PAC وكان ذلك كذبا لأننى نقلت لأسبابهم الخاصة التى سرعان ما وضحت وسُجنت انفراديا فى سجن بريتوريا ولكننى تمكنت من تبادل الاتصالات مع أعضاء المؤتمر هناك وعلمت أنه قد تم القبض على بعض كوادز الـ MK بعد انتهاء تدريباتهم فى أثيوبيا. وعن طريق القنوات السرية حاولت مساعدتهم فى المحاكمة وعرضت عليهم الاتصال بهارولد وولب للدفاع عنهم لكننى علمت أنه فى الحجز. فأيقنت أن شيئا ما قد حدث. وكان قد صدر أمر بالحظر على ورنى فى أوائل ١٩٦١ لمدة سنتين. وذات يوم فى يوليو ١٩٦٢ وبينما كنت سائرا فى الممر المؤدى إلى زنزانتى رأيت توماس ماشيفان الذى كان رئيسا للعمال فى المزرعة. ورغم أننى فهمت أن السلطات قد

دبرت ذلك اللقاء لتتأكد من معرفتى إياه فقد حبيته بحرارة وكان وجوده يعنى أن السلطات قد اكتشفت ريفونيا. وبعد يومين استدعيت إلى مكتب السجن حيث وجدت وولتر وچوفان مبيكى وأحمد كاثرادا وأندرو مالفجيني وريموند مهلاباً عضو القيادة العليا لـ MK الذى كان قد عاد من الصين بعد إتمام تدريبه. ووجهت إلينا تهمة التخريب وكان علينا الظهور فى المحكمة فى اليوم التالى. كنت قد قضيت تسعة أشهر من سنوات سجنى الخمس.

وبالتدريج علمت ما حدث. ففى عصر يوم نخلت شاحنة تنظيف ملابس إلى المزرعة ولم يكن أحد قد طلب تسليم شئ، وحينما حاول حارس إفريقى استيقافها هاجمه عشرات رجال الشرطة المسلحين وقفزت الكلاب البوليسية من الشاحنة وأحاطوا بالمزرعة وفتشوا المباني وتم القبض على الجميع بما فيهم آرثر جولدريتش. وتمت مصادرة مئات الوثائق والأوراق وبضرية واحدة ألقى بها الشرطة القبض على جميع أعضاء قيادة MK وألقى بهم فى الحجز طبقاً للقوانين المستحدثة. ولحسن الحظ كان چوسلوفو وبرام فيشر غير متواجدين.

ووجهت إلينا تهمة التخريب وبعد أيام قليلة سمح لنا بمقابلة هيئة الدفاع وأخبرنا برام فيشر أننا نواجه محاكمة شديدة الخطورة وأن الدولة ستطالب بإعدامنا.

وفى أكتوبر ١٩٦٣ نقلنا فى شاحنة شرطة مسلحة إلى قصر العدالة

فى بريتوريا حيث تنعقد المحكمة العليا فيما أصبح يعرف باسم قضية الدولة ضد نيلسون مانديلا وآخرين أو محاكم ريثونيا. وأحاطت بنا شاحنات الشرطة. وهناك كانت تقف عربات شرطة بها كبار مسؤوليها. وكانت المحكمة تعج بالرجال المسلحين. واقتدنا إلى المدخل الخلفى تحاشيا للمؤيدين الذين كنا نستطيع سماعهم وهم ينشدون. وبدأت ما اتفق على أنه أهم محاكمة سياسية فى تاريخ جنوب إفريقيا. ودخلنا قاعة المحكمة وكل منا فى حراسة اثنين من رجال الشرطة المسلحين. وقمنا برفع قبضات أيدينا بتحية المؤتمر ورددنا هتافاتنا التى رد عليها الجمهور. وقامت الشرطة بتصوير الحضور وأخذ بياناتهم قبل مغادرة القاعة. وكانت القاعة مليئة برجال الصحافة المحليين والأجانب ومندوبى الحكومات الأجنبية. وكون رجال الشرطة حاجزا بيننا وبين الجمهور. وكانت الحراسة قوية وخاصة لأن قبل ذلك بأسابيع كان آرثر جولد وهارولد وولب وموسى موولا وعبدالحى جاسات قد نجحوا فى الهرب وتمكن آرثر وهارولد من عبور الحدود متخفين كقساوسة إلى سوازيلاند ومنها إلى تنجانيقا. وقد أحدث هربهم حالة من الهستيريا ورُحِب به بعناوين رئيسية فى الصحافة مما سبب الإحراج للحكومة.

وكان القاضى فى محاكمة ريثونيا هو كوارتس دى ويت أحد آخر قضاة كان قد عينهم حزب المتحدين. أما الادعاء واسمه بيرس يوتار فكان شخصا ميلودراميا غير دقيق التعبير ذا صوت كالصيرير حينما يغضب. وقدم يوتار عريضة الاتهام وطلب محاكمة فورية مختصرة.

وكنت المتهم الأول. وكنا نحن الأحد عشر متهمين بالاشتراك فى أكثر من مائة عمل تخريبى تهدف إلى تسهيل الثورة المسلحة والغزو المسلح للبلاد وادعت الدولة أننا أعضاء مؤامرة لقلب نظام الحكم وكانت العقوبة القصوى هى الإعدام وطبقا لقانون التخريب فكان العبء على الدفاع ليثبت براءة المتهم.

وطلب فيشر التأجيل على أساس أن الدفاع لم يُعط فرصة لتحضير القضية ومنحنا القاضى ثلاثة أسابيع.

وطلبت وبنى من وزير العدل السماح لها بالحضور وكانت تحت قرار حظر فوافق على شرط ألا ترتدى الزى الوطنى.

وفى يوم ٢٦ أكتوبر دخلنا مرة أخرى إلى قصر العدالة وكانت الجموع كبيرة ومهتاجة وكانت الحراسة قوية للغاية ومرة أخرى كان هناك العديد من الضيوف الأجانب ذوى الشأن.

وبدأنا الهجوم على الفور ووصف فيشر عريضة الاتهام بأنها زائفة وتحوى تقاهات كاتهامى بالاشتراك فى أعمال تخريبية فى وقت كنت فيه فى السجن ونظر القاضى إلى يوتار طالبا التوضيح وبدلا من أن يقدم تفصيلات بدأ ما وصفه القاضى بأنه خطبة سياسية وحينئذ قال له القاضى «إن أساس اتهامك كما أفهمه هو اقتناعك الشخصى بأنهم مذنبون» وألغى أمر الاتهام وأنهى الجلسة.

وأصبحنا فنيا فى تلك اللحظة طلقاء وساد الهرج القاعده وأعيد القبض علينا حتى قبل أن يغادر دى ويت مقعده.

وأعدت الدولة صياغة عريضة الاتهام وعدنا إلى المحكمة أوائل ديسمبر. ولاحظنا أن دي ويت كان أكثر عداء هذه المرة وقُرأت الاتهامات الجديدة وكانت هي أننا جندنا أشخاصا للقيام بأعمال تخريب والبدء في ثورة مسلحة وأننا تأمرنا لمساعدة غزو عسكري أجنبي لنبدأ ثورة شيوعية وأننا استشرنا دولا أجنبية وتلقينا منها مساعدات لهذا الهدف.

وعندما نودى علينا قرر كل من المتهمين أن يوحى بأن الحكومة هي المجرمة قبل أن يقرر أنه غير مذنب.

وفي كلمته أكد يوتار أننا كنا نخطط لعشرة آلاف من الفدائيين المدربين ليبدأوا ثورة يعقبا غزو عسكري أجنبي وبعد ذلك تقام حكومة إقليمية ثورية وأن أداة تلك الخطة هي MK تحت الإدارة السياسية للمؤتمر والحزب الشيوعي وأن المقر الرئيسي لـ MK كان ريڤونيا. ثم قام بوصف لنشاطاتنا التي ضمنها إقامة محطة إرسال إذاعي في ريڤونيا ومسئوليتنا عن مائتين واثنين وعشرين عملا تخريبيا وتجنيد الأعضاء وإقامة مدرسة تدريبية في الكيب وإنتاج قنابل متنوعة وجمع الأموال من الخارج. وأثناء الشهور الثلاثة التالية أتت الدولة بمائة وثلاثة وسبعين شاهدا وضمت إلى سجل القضية آلاف الوثائق والصور.

وكنا في حيرة من أمر ما تمتلكه الدولة من أدلة ضدي فقد كنت خارج البلاد وفي السجن في الفترة التي حدث فيها التخطيط في ريڤونيا.

وكنت حينما رأيت وولتر فى سجن بريتوريا المحلى قد طلبت منه أن ينقل كل كتيبى ومذكراتى من الضيعة. ولكن خلال الأسبوع الأول للمحاكمة وحينما طلب راستى برينشتاين الإفراج بكفالة أبرز يوتار بطريقة درامية خريطة القلعة التى كنت قد رسمتها والمذكرة الملحقة بشأن خطة الهرب وصاح قائلاً إن ذلك دليل على أن جميع المتهمين من الممكن أن يخططوا للهرب. وكان ذلك علامة على أن شيئاً من متعلقاتى لم ينقل من ريشونيا.

وكان شاهد الدولة الرئيسى هو زولو من دربان ويدعى برونو متولو أو السيد X كما سُمى فى المحكمة وكان يوتار قد ذكر بلهجة مسرحية أن حياة الشاهد فى خطر جسيم، وكان متولو ذا ذاكرة حادة وكان قائد الفرع MK فى ناتال كما كان خبيراً فى أعمال التدمير وقد زار ريشونيا وكنت قد ألقيت خطاباً فى كوادره فى ناتال عقب عودتى وقابلته هناك. وكانت شهادته دقيقة عن العمليات التى قام بها وعن استعمال القنابل وعن نشاطاتنا السرية وقال إنه لم يفقد الإيمان بمثل المؤتمر لكنه فقد الثقة فى المنظمة بعد أن تبين أنها MK هى أداة للحزب الشيوعى. وأدلى شهادته ببساطة وتظاهر بالصراحة ولكنه أدخل إضافات -غالباً بناء على تعليمات الشرطة- كقوله إننى قلت لهم إن على كوادر MK أن يكونوا شيوعيين بدون الإعلان على أرائهم وبدا ذلك صحيحاً فى سياق التفاصيل الدقيقة التى رواها. وقد أذهلتنى خيانة متولو الذى لم يتعرض للتعذيب والذى ذكر أسماء أرباب كثيرين مورطاً إياهم فى القضية نون داغ.

ومن خلال مساعلة الدفاع له اكتشفنا أن متولو كان مجرماً حقيراً قبل التحاقه بـ MK وكان قد سجن ثلاث مرات بتهمة السرقة ولكن بالرغم ذلك فقد كانت لشهادته أثرها المدمر لأن القاضي وجدّه أهل ثقة وكانت شهادته إدانة لنا جميعاً.

وكان مفتاح القضية ضدنا هو خطة العمل المكونة من ست صفحات والتي صادرتها الشرطة عند الهجوم على ريڤونيا. وكانت حينئذ أمام القادة على المائدة وكانت تدعى عملياً ماييوي وهي عبارة عن تخطيط مبدئي للعمليات الفدائية الممكنة وكيفية إشعال ثورة جماهيرية مسلحة ضد الحكومة وكانت قضية الادعاء تركز على أنه قد تمت الموافقة على العملية من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر وتمسكتنا نحن بقولنا إنها كانت مازالت موضع مناقشة وقت الهجوم. وكنت أنا قد رأيت أنذاك أن العملية غير واقعية في أهدافها وخطتها.

-٥٦-

واستمرت قضية الدولة حتى ٢٦ فبراير ١٩٦٤. وبعد ذلك منحنا مدة شهر أو أكثر قليلاً لفحص الأدلة وإعداد الدفاع وكانت أدلة الدولة لا تُجرّمنا جميعاً بنفس الدرجة فلم يكن هناك دليل ضد جيمس كانتور. أما راستي بيرنشتاين وريموند مهلابا وأحمد كاترادا فكان دليل تورطهم في المؤامرة ضئيلاً. وقرر بقيتنا الستة الاعتراف بأننا مذنبون في تهم معينة.

كان برام فيشر متشائماً. أما نحن فكنا قد قررنا منذ البداية أن

هدفنا هو استغلال المحاكمات منصات نعلن منها عقائدنا. فلم يكن همنا هو أن تبرأ ساحتنا أو تخفف الأحكام ضدنا لكن أن تدعم المحاكمة القضائية التي نناضل من أجلها. وكان دفاعنا عن أنفسنا ينصب على وجهة النظر الأخلاقية. فمثلا قررنا إثبات عدم صحة ادعاء الدولة بأننا بدأنا حرب عصابات لكننا قررنا الاعتراف بأنه كانت لدينا خطط بديلة لاستعمال حرب العصابات في حالة فشل أعمال التخريب.. وكنا أيضا سننفي أية تهمة قتل أو إضرار لحق بأي شخص برئ وكذلك الاتهام بأننا قد فكرنا في تدخل قوات أجنبية. أما بخصوص فكان هناك من الأدلة ما يكفي لإدانتى.

وكتت الشاهد الأول وقررت بدلا من الخضوع للاستجواب أن أقوم بإلقاء بيان وكان ذلك الإجراء كما حذرني المحامون سيعرضني لأن يستبعد القاضى أى شئ فى بيانى يخص براعتى. لكن اهتمامنا الأول كان أن نبدأ الدفاع ببيان عن سياستنا يكون هو السياق لما يتلوه.

وقضيت أسبوعين أحضر بيانى ثم قرأته على زملائى وأقروه مع اقتراحات ببعض التغييرات. ولكن عندما قرأه فيشر وعرضه على أحد المحامين رجائى أن أعدك وإلا فلا أمل لى. لكننا كنا نعتقد أن احتمال حكم الإعدام وارد فلا أقل من أن نقول ما نعتقد.

وفى يوم الإثنين ٢٠ إبريل وتحت الحراسة المشددة أخذنا إلى صالة العدالة لبدء الدفاع وكانت وبنى هناك مع والدتى وكانت القاعة مكتظة.

وأعلن برام فيشر موافقة المتهمين على بعض أجزاء أدلة الدولة وقال إن

الدفاع سينكر بعض ما أكدته الدولة بما فيها أن MK هي الجناح العسكري للمؤتمر لأن قادة المنظماتين حاولوا دائما إبقاها منفصلتين. وأنكر بشدة أن MK كانت تتلقى أوامرها من الحزب الشيوعي وأن جولديبيرج وكاثرادا وبيرنشتاين أعضاء في MK ثم قرر أنه سيبرهن على أن MK لم تتبن عملية مايبيورلي وأنها لم تبدأ الإعداد لحرب العصابات. وبصوته الخفيض أعلن أن قضية الدفاع ستبدأ ببيان في قفص الاتهام يليه المتهم الأول الذي اشترك شخصيا في تأسيس MK.

وهنا ثار يوتار الذي كان قد أعد العدة لاستجوابي لكن القاضي تجاهله. ووقفت في مواجهة المحكمة وقرأت بياني ببطء.

قلت إنني المتهم الأول وإنني الآن سجين أقضى عقوبة مدتها خمس سنوات وإنني قد ساعدت في إنشاء MK وقلت إنني فعلت ما فعلت كفرد وقائد نتيجة لتجربتي في جنوب إفريقيا ولخلفيتي الإفريقية التي أفخر بها.

ثم ذكرت لهم ظروف نشأتي وكيف غرست في نفسي الفخر بكل ما هو إفريقي مما جعلني أمل أن تتاح لي الفرصة أن أخدم شعبي وأقدم مساهماتي المتواضعة في معركة حريتهم وأن تلك هي نوافعي في كل ما فعلت وتتعلق بالتهمة الموجهة لي في تلك القضية.

ولم أنكر أنني خططت لبعض أعمال العنف ليس حبا في العنف ولكن نتيجة لتقييم هادئ للموقف السياسي الذي وجد نتيجة سنوات عديدة

من الطغيان والاستغلال والاضطهاد من جانب البيض لشعبي. ثم وضحت كيف أن خمسين عاما من عدم العنف من جانب المؤتمر لم ينتج عنها سوى القوانين الظالمة والاستغلال والاضطهاد للأفارقة وهكذا بدت السياسة التي تهدف إلى إقامة الدولة غير العنصرية عن طريق عدم العنف غير مجدية وذكرت أننا شعرنا أن البلد في سبيله إلى حرب أهلية بين السود والبيض مما كان سيستحيل معه إقامة سلام في المستقبل بين الأعراق المختلفة. وعلى ذلك بدت أعمال التخريب الأمل الوحيد لعلاقات سليمة مستقبلية بين الأعراق وكان رد الدولة على مجهوداتنا الأولية سريعا ووحشيا. ثم قلت إن التمرد سيعطى للحكومة فرصا لا نهائية لارتكاب المذابح ولأن تربية جنوب إفريقيا مازالت مشبعة بدماء الأفارقة الأبرياء فقد رأينا أن نعد أنفسنا على المدى البعيد لاستعمال القوة في مواجهة القوة فإن كانت الحرب أمرا محتوما فقد أردنا للمعركة أن تجرى في ظروف مواتية لنا وأن الحرب الوحيدة ذات الاحتمالات المواتية لنا والتي تقلل من المخاطرة بحياة الأفراد من الطرفين هي حرب العصابات. ولهذا قررنا أن نعد لإمكانية قيام حرب عصابات.

ثم ذكرت ظروف مغادرتي البلاد والتدريب العسكري الذي تلقيته ثم ذكرت الخط الفاصل بين المؤتمر وMK ثم فندت دعاوى الدولة من أن أهداف المؤتمر والحزب الشيوعي واحدة مؤكدا أن المؤتمر كان مبدؤه دائما القومية الإفريقية وليس إلقاء الرجل الأبيض في البحر وأن أهم وثائقه هي ميثاق الحرية ولم يفكر في أي وقت في تغيير البنية

الاقتصادية للبلاد. فبينما يعمل الحزب الشيوعي على التأكيد على تفاوت الطبقات يعمل المؤتمر على التناسق بين الطبقات. ثم أضفت أن التعاون بين الحزب الشيوعي وبين المؤتمر هو تعاون من أجل إنهاء سيادة الرجل الأبيض وأعطيت مثالا بتحالف بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتي ضد هتلر.

وذكرت أنه لعقود عدة كان الشيوعيون هم المجموعة الوحيدة السياسية في جنوب إفريقيا التي تعامل الأفارقة كأدميين وأنداد ولهذا السبب فهناك أفارقة اليوم يميلون إلى مساواة الحرية بالشيوعية. ولم أنكر أن فكرة المجتمع اللاتبقى قد لاقت من نفسى قبولا وأن الفكر الماركسي قد أثر في وقتل إن هذا ينطبق على كثير من القادة الأفارقة في الدول حديثة الاستقلال الذين تقبلوا الحاجة إلى شكل من أشكال الاشتراكية ليتمكنوا شعوبهم من اللحاق بالدول المتقدمة في الغرب. ورغم ذلك فإننى أنظر إلى النظام البرلماني البريطاني كأكثر النظم ديمقراطية في العالم وكذلك هي نظرتى للنظام البرلماني الأمريكى.

وبعد ذلك فصلت الفوارق الرهيبة بين حياة البيض والسود في جنوب إفريقيا وذكرت أن البيض يدعون أن الأفارقة في جنوب إفريقيا أحسن حالا من الأفارقة في أنحاء القارة وقتلت إن شكوانا ليست أننا فقراء بالنسبة لغيرنا من الأفارقة ولكن أننا فقراء.. بالمقارنة بالبيض في بلدنا وأنا ممنوعون من إصلاح هذا الوضع.

واستطردت قائلا إن انعدام الكرامة الإنسانية الذى يعانى منه الأفارقة

لهو نتيجة مباشرة لسيادة البيض، وإن التشريع الذى هدفه أن يحافظ على تلك السيادة يعمق تلك السيادة. فالمهمات الحقيرة يقوم بها الأفارقة. الفقر وانهيار الأسرة أشياء لها آثارها الأخرى. فالأطفال يجوبون الشوارع لأن ليس لديهم مدارس يذهبون إليها أو والدان يرسلانهم إلى المدرسة لأن على كل من الوالدين أن يعمل ليقيم أود أولادهم وهذا يؤدي إلى انهيار المعايير الأخلاقية وارتفاع عدد اللقطاء وتفجر أعمال العنف السياسية وغيرها.

وقلت إننى أعرف أن مطالبة الأفارقة بحقوق متساوية يبدو ثوريا للبيض لأن معظم الأصوات ستكون للسود ولهذا يخاف الرجل الأبيض من الديمقراطية. وختمت كلمتى وسط صمت تام فى القاعة وأنا أنظر إلى القاضى دى ويت وقلت:

لقد كرست نفسى لمعركة الشعب الإفريقى هذه وناضلت ضد سيادة البيض وناضلت ضد سيادة السود فقد اعتنقت مبدأ مجتمع حر وديمقراطى حيث يعيش جميع الأفراد فى تآلف ويكون لديهم فرص متساوية وهذا هو المثل الأعلى الذى أمل أن أعيش من أجله وأحققه. ولكن إذا احتاج الأمر فهو المثل الأعلى أيضا الذى أنا على استعداد كى أموت من أجله.

وجلست، وساد القاعة صمت بدا كما لو أنه امتد دقائق عديدة ولكنه فى الواقع لم يستمر أكثر من ثلاثين ثانية، وعندئذ، ومن مقاعد الجمهور سمعت ما قد بدأ وقتها وأنه تنهيدة عظمى جماعية تلاها بكاء

النساء.

وكانت كلمتي قد استمرت أربع ساعات وكانت الساعة قد تخطت الرابعة وهو ميعاد رفع الجلسة عادة، لكن القاضي دي ويت طلب الشاهد التالي لأنه كان مصمما على تخفيف وقع بياني ولكن لم يفلح أى شئ فعله فى تخفيف الوقع. وحينما فرغت من كلمتي وجلست كانت تلك آخر مرة يواجه فيها دي ويت نظراتي.

ولاقت كلمتي ربود فعل ضخمة فى الصحافة المحلية والأجنبية ونشرتها الديلى راند كاملة رغم قرار حظر كلماتي. وكانت الكلمة قد بينت خط دفاعنا وجعلت الادعاء أعزل نظرا لأنه كان قد أعد للقضية على أساس أننى سأقوم بالإدلاء بالشهادة محاولا إنكار مسئوليتي عن أعمال التخريب.

وجاء نور المتهم الثانى، وولتر سيسولو، وكان عليه أن يتحمل الاستجواب الذى كان يوتار قد أعده لى ولكن وولتر تحمل سيل الأسئلة العدائية وسما على حقارة يوتار. وجاء بعد ذلك نور جوفان الذى روى بفخر تاريخ عضويته للحزب الشيوعى وكذلك فعل أحمد كاترادا ورستى بيرنشتاين وقد أنكر كاترادا ارتكاب أعمال تخريب أو تحريض للآخرين ولكنه قال إنه يؤيد تلك الأفعال إن كانت تخدم المعركة.

وكان خطاب يوتار النهائى عبارة عن تلخيص مشوه لقضية الادعاء مليونا بالإهانات حتى أن القاضي دي ويت بدا متحيرا إزاء بعض

المعانى التى قصدها يوتار وعند نقطة معينة قاطعه متسائلا إن كان يوافق على أنه قد فشل على أن يبرهن أن قرارا كان قد اتخذ بشأن حرب العصابات.. وأحيا ذلك لدينا الأمل.

ورد مستشار الدفاع على النقط التى أثارها يوتار فى كلمته. وكذلك بين برام فيشر التناقضات والادعاءات الكاذبة التى وردت فى كلمة الادعاء. ولكن دى ويت قاطعه قائلا إنه مقتنع أنه لم يتخذ قرارا بشأن حرب العصابات وأن المؤتمر منظمة منفصلة عن MK. وتأجلت الجلسة ثلاثة أسابيع لدراسة الحكم.

-٥٧-

وكان العالم مهتما بمحاكمة ريفونيا. أقيمت صلوات طوال الليل فى كاتدرائية سان بول فى لندن وانتخبنى طلبة جامعة لندن رئيسا للاتحاد غيايبا ودعا فريق من المختصين فى الأمم المتحدة إلى عقد مؤتمر قومى فى جنوب إفريقيا لانتخاب برلمان يمثل حقيقة الشعب ودعوا إلى العفو عن جميع المعارضين للأبارتايد وقبل أن يتخذ القاضى دى ويت قراره بيومين حدث مجلس الأمن فى غياب أربعة أعضاء من بينهم بريطانيا والولايات المتحدة حكومة جنوب إفريقيا إلى إنهاء المحاكمة والعفو عن المتهمين.

وفى الأيام التى سبقت إعادة انعقاد المحكمة كنت قد أديت امتحان ليسانس الحقوق لجامعة لندن وكان السجانون يعلقون على ذلك بقولهم إننى لن أحتاج لدرجة فى القانون حيث أنا ذاهب. وكانت تلك الطريقة

منعتنى عن التفكير فى المحاكمة بطريقة سلبية. ونجحت فى الامتحان. و يوم الخميس ١١ يونيو اجتمعنا ثانية بقصر العدل وكنا فقط ننتظر نوع العقوبة:

ويدون إضاعة وقت نطق دى وريت بالحكم وكان إدانة المتهمين الرئيسيين فى التهم الأربعة الموجهة إليهم أما كاثرادا فقد ثبتت عليه تهمة واحدة وثبتت براءة راستى بيرنشتاين، وتأجل النطق بالعقوبة حتى اليوم التالى لكى تُعطى الدولة والدفاع فرصة لتقديم أية وثائق يرونها.

وبعد مناقشات قررنا أننا لن نستأنف الحكم حتى ولو كان حكما بالإعدام لأن الاستئناف يقوض الموقف الأخلاقى الذى التزمنا به وكبريائنا فيما فعلنا وعبرنا عنه. كما أننا لم نكن نريد أن نعوق الحملة الجماهيرية التى لا بد وأن تتفجر فى حالة الحكم بإعدامنا وكان رأينا أن الاستئناف سيكون هبوطا مفاجئا للخط الذى التزمنا به وإجباطا للأمال.

وكنتم مستعدا للحكم بالإعدام ولكى يكون الإنسان مستعدا بحق فلا بد له وأن يتقبله بالفعل فلا يستطيع الإنسان أن يكون مستعدا لشيء إذا كان يؤمن فى أعماقه أن لن يحدث. وكنا جميعا مستعدين ليس لكوننا شجاعانا ولكن لكوننا واقعيين.

وفى يوم ١٢ يونيو ١٩٦٤ دخلنا المحكمة للمرة الأخيرة وكان قد مر عام تقريباً منذ الهجوم على ريفونيا. وكانت احتياطات الأمن غير عادية. وهرعت بنا حافلة الشرطة عبر الشوارع مطلقه صفاراتها ولم يسمح بالمرور فى الشوارع المؤدية للمحكمة. وبرغم إجراءات التخويف فقد تجمع حوالى ألقى شخص أمام المحكمة رافعين شعاراتهم. وفى الداخل امتلأت مقاعد النظارة عن آخرها. ولوحت محبياً وبنى ووالدتى. وقبل النطق بالحكم تكلم هارولد هانسون وألان بيتون الكاتب ورئيس الحزب الليبرالى طالبين تخفيف الحكم حيث إنه لا يمكن تجاهل المظالم القومية وأن أهدافنا نفسها لم تكن إجرامية ولكن الوسائل المتبعة هى غير المشروعة. وتجاهل القاضى كلمتهما. ثم أشار إلينا بالوقوف وتكلم وهو يتحاشى نظراتنا وقال إنه استمع لكل ما قيل عن مظالم غير الأوروبيين وعن بواقع المتهمين التى كانت لرفع تلك المظالم لكنه شخصياً لا يعتقد فى إثارية بواقعهم إذ إنه فى حالة قيام ثورة فإن هؤلاء القادة سيحتلون مناصب الحكومة وحيث إن الدولة قد قررت عدم اتهامهم بالخيانة العظمى فإنه بعد تفكير ودراسة قرر من منطلق التسامح ألا يحكم بالعقوبة القصوى وعلى ذلك فإن العقوبة لجميع المتهمين هى السجن مدى الحياة.

وساد الهرج قاعة المحكمة. وأخرجنا من الباب الخلفى ودخلنا الشاحنة السوداء التى سلكت طريقاً مختلفاً رغم ذلك كنا نسمع صيحات وهتافات الجماهير. وفصلنا عن دينيس جولديبيرج لكونه أبيض. وسجن

الباقون فى زنزانات فى سجن بريڤوريا المحلى بعيدا عن جميع السجناء الآخرين وبدلا من الهتافات والأغاني كنا نسمع فقط صرير الأبواب والبوابات.

وتلك الليلة وأنا مستلق على حصيرتى فى الزنزانة بدأت أراجع أسباب قرار دى ويت. فقد كاثت المظاهرات قد عمت جميع أرجاء جنوب إفريقيا. كما أن الضغط الدولى كان لا بد وأنه أثر فى قراره. فقد احتجت الاتحادات الدولية على المحاكمة وهدد اتحاد عمال السفن بمقاطعة التعامل مع بضائع جنوب إفريقيا وكتب بريجنيف إلى فيرويرد طالبا استعمال الرأفة واحتج بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى وقام خمسون من أعضاء البرلمان فى إنجلترا بتسيير مسيرة وكانت هناك شائعات أن وزير خارجية بريطانيا قد تدخل من أجل المحاكمة كما كتب ممثل الولايات المتحدة يقول إن حكومته مستعدة لأى شئ من أجل أن تمنع صدور حكم الإعدام. وفكرت أنه بما أن دى ويت قد اقتنع أننا لم نبدأ حرب عصابات وأن المؤتمر MK منفصلان فقد كان من الصعب عليه إصدار حكم بالإعدام.

وفى كل مساء فى سجن بريڤوريا المحلى وقبل أن تطفأ الأنوار كانت نسمع أصدااء أغاني الحرية التى ينشدها السجناء وكنا نحن أيضا نتطلق بالغناء. ■